

خصوصية النمو عند الطفل ، الخصوصية اللغوية

جربو عبد القادر

1-النمو اللغوي:

يبدأ نمو لغة الطفل منذ ولادته انطلاقاً من مناغاة، ومجموعة من بعض الحروف التي يسهل عليه نطقها، بناء على نضج جهازه العصبي المركزي، وتصبح هذه المجموعة من الأصوات كالصراخ، والبكاء تعبيراً عن حاجته للطعام أو تعبيراً عن الألم، لكن غريزة التعلم تجعله يطور لغته على امتداد مرحلة الطفولة، "فالطفولة البشرية أطول بكثير من مرحلة طفولة أي كائن حي آخر والرضيع البشري أكثر اعتماداً على الآخرين من صغار الحيوانات الأخرى جميعاً، والطفل لا يعتمد على غرائز فطرية في سلوكه بل هو قابل للتعلم"1.

تتطور لغة الطفل بشكل سريع وبخاصة خلال السنوات الأولى التي يكون فيها على اتصال مباشر مع كل ما يحيط به، فيثري رصيده اللغوي، ويكتسب مفردات جديدة دون أن يفهمها فهم الكبار، فتراه يوظفها في مواقف ومواقع لا تصح ومعنى الكلمة.

وتدخل عدة عوامل في نمو لغة الطفل نذكر منها:

أ- بيئة الطفل ومحيطه:

الأسرة هي الفضاء الأول لتدريب الطفل على استعمال الألفاظ اللغوية في التواصل الشفوي، واستعمالها لتبليغ وتحقيق رغباته اليومية المباشرة "وللظروف التي تحيط به في المنزل، والشارع أثرها الفعال في قدرته اللغوية وكثر هم الأطفال الذين يسعلهم الحظ، فتتاح لهم فرص لممارسة الخبرات المختلفة، ثم يشجعون على التحدث عن هذه الخبرات في سنتهم الأولى، وآخرون ينشؤون في بيئة قاحلة لا أثر فيها للكتب،

أو الصور، أو القصص أو اللعب أو الرحلات، بل لعلّ منهم من يحلّ بينه وبين التعبير عما يريد فيكتب نموه اللغوي في بدايته "2.

وهذا ما يؤكد على أن أثر العلاقات الأسرية ينعكس إيجاباً أو سلباً على الطفل، فإن وفرّ له جواً ملائماً للكلام، والتعبير عما يحاوجه من دون خوف ودفعه إلى المطالعة أو الخوض معه في حديث عن سفر قامت به العائلة، حيث يعامل بمثل ما يعامل به الكبار في التعبير عن أفكاره بما يشاء دون لوم أو تأنيب، فإن مداركه العقلية واللغوية تنمو نمواً سوياً، وإن حدث العكس يكت الطفل، وقد يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة.

ب- الذكاء والثقافة:

تختلف نسبة الذكاء من شخص إلى آخر وقد يرجع هذا على حسب رأي بعض علماء النفس ومن بينهم جون بياجيه J. Piaget إلى أثر الوراثة، فالذكاء يورث وهو قابل للتطور والزيادة، فقدرة الطفل على استيعاب الكلام وتركيب الجمل بصفة سليمة دليل على وجود ذكاء لغوي وهو متفاوت من طفل إلى طفل آخر "وتبين البحوث أن الطفل الغبي أبطئ من الذكي في حديثه، كما أنه أقل منه قدرة على التمكن من الكلمات والجمل والتراكيب، ومن أجل هذا كانت للقدرة اللغوية دلالتها على ذكاء الفرد وكثيراً ما نلاحظ أن الطفل القاصر في استخدام اللغة أميل إلى أن يكون قاصراً في ذكائه العام كذلك"3

الذكاء يؤمن توازناً أوسع واستقراراً للمفاهيم التي تجول في عالم الطفل، والتوازن هو دور الذكاء الأساسي والرئيسي في فكر الإنسان وجسمه "فالذكاء قبل كل شيء نظام عمليات حية وفعالة، أكثر سلاسة وديمومة في آن واحد، فهو تكيّف عقلي جدّ متطور، أي جهاز تبادلات ضروري بين الفرد والعالم الخارجي، حيث تتخطى حلقاتها الاتصالات المباشرة وآنية وصولاً إلى العلاقات البعيدة والمستقرة"4.

يركّز "جون بياجيه" على علاقة الطفل بالعالم الخارجي وما يحويه من عقائد وعادات وأخلاق، وهذا يوصلنا إلى أثر الثقافة في نمو لغة الطفل التي عرفها إدوارد

تايلور في كتابه الثقافة البدائية بقوله: "ذلك المركب الذي يشتمل على المعرفة، والعقائد، والفن، والأخلاق، والقانون والعادات وغيرها من القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع"5، فتقافة الأطفال ثقافة نوعية إلا أنه لا يمكننا فصلها عن الثقافة العامة للمجتمع، فهي جزء منها لكن لها خصوصياتها، فهي تنفرد بخصائص أخرى منها القيم والمعايير والعادات والطرق الخاصة في اللعب، والتصرفات والاتجاهات، والمواقف والانفعالات، والأزياء وغير ذلك مما يشكل ثقافة الأطفال، وخصوصية عناصرها وانتظامها البنائي، وهذا دون أن ننسى دور الكبار في وضع القوانين ورضع الطفل إن مسّ بما لا يتوافق مع عادات المجتمع6

2- خصائص لغة الطفل:

ترداد ثروة الطفل اللغوية من يوم إلى يوم وتزداد مهارته في الكلام وترتيب الأفكار أضف إلى ذلك النطق السليم وإخراج الأصوات، وقد بينت بعض الدراسات أن القدرة اللغوية عند البنات أعلى منها عند البنين الذين هم أقلّ عناية ودقة في تعبيرهم اللغوي وأكثر إهمالاً لقواعد النحو.

وتظهر بعض الخصوصيات في لغة الأطفال نذكر منها:

أ- التركيز على المحسوسات لا المجردات:

أول ما ينطق به الطفل لا يتجاوز حرفاً أو حرفين مثل "ما"، "با"، "ماما"، "بابا" دون أن يدرك معاني الكلمات فقد يقصد بـ "بابا" أباه، كما قد يقصد به رغيف الخبز، "فالأطفال عند بدء تعلمهم الكلام يتعرفون إلى الأسماء المحسوسة، أما الأفعال والحروف فتظهر بعد ذلك، ويختلف ظهور المعنويات مثل "حب" و"حنان" و"فن" و"نسيان" لأنها تقتضي خبرات مستمرة في مواقف معينة تهيئ للطفل عملية

التعليم"7، لذا نرى الأطفال لا يولون أهمية لبعض الكلمات مثل الشرف أو الحرية فعبثا نحاول الخوض في حديث مع الطفل حول هذه المواضيع.

ب- التركيز على الذات:

من بين ميزات الطفل حبّه المفرط لذاته وتملكه للأشياء دون مقاسمتها مع الآخرين وهذا يكمن في خوفه على أعباءه وحبّه في أن يكون هو مركز الانتباه، ونعكس ذلك في لغة الطفل فنجد كلمة "أنا" حاضرة في كلّ كلامه: "وهو ما يؤكد ما ذهب إليه العالم النفساني "بياجيه" في كتابه "لغة الطفل وتفكيره"، وذلك فيما سّماه - التمرکز حول الذات - Egocentrisme على الرغم مما أثارتته هذه النظرية من خلاف بين الباحثين"8

فمن خلال تجارب بياجيه توصّل إلى أن كلام الطفل غالبا ما يكون موجّها إلى ذاته، فالطفل يتحدث عن نفسه دون أن يقصد التعرف على وجهة نظر الآخرين، والغرض من ذلك إشباع رغبة الطفل في كونه محور كلّ حديث، وتجده عصيبا مع أترابه غير اجتماعي لا يحب أن تُسرق منه الأضواء حين يروي مغامراته التي عاشها حقا أو التي أبدعها من نسيج خياله.

ج- البساطة وعدم الدقة في التركيب:

تتسم لغة الطفل بالبساطة والجمل القصيرة، حيث يربط بين كلمتين أو أكثر ليكون جملة ذات معنى دون مراعاة قواعد اللغة، أو حرف جر ويسبق الفاعل الفعل؛ بمعنى أن الطفل يبدأ عبارته الإخبارية عادة باسم المتحدث عنه، أو بما يسمّيه البلاغيون المسند إليه ثم يذكر بعد ذلك المسند سواء كان اسما أم فعلا، فمثلا نجده يقول "ماما راحت الدار" أو "بابا راح لوطو" وعادة ما يستعمل الطفل هذه الجمل لوصف عمل أو ظاهرة ما، ولهذا علاقة بتفكيره، "فالطفل عادة يربط بين أشياء وأحداث لا توجد بينها علاقة منطقية في دنيا الواقع ولكنه يربط بينها لتلائم ظهورها أمامه أو لأثارها مشاعر متشابهة في نفسه، تختلط عليه فلا يفرّق بينهما ولا يميزها عن بعضها البعض"9.

والمقصود من عدم وجود علاقة منطقية بين ما يفكر فيه الطفل والواقع هي في الحقيقة لا أساس لها من الوجود إذا فكرنا بمنطق الطفل لا الراشد، وغالبا ما يعبر عنها بتراكيب لغوية تثير ضحك الكبار وهذا ما ينهي عنه علماء النفس أمثال "نورتون" Norton و "Piaget" فقد يزعج هذا التصرف الطفل أو يجعله يتعمد الغباء لإثارة ضحك الكبار، زد إلى ذلك أن الطفل إذا استطاع أن يركب الجمل فهو في مرحلة يكون فيها رصيده اللغوي على حسب "نورتون" حوالي 2500 كلمة وهذا غير كاف لإشباع رغبته في الكلام ومحاكاة الكبار وتقليدهم فيعمد إلى التكرار "وهذه الترة أكثر وضوحا في التعبير اللغوي حيث إن اللغة من أيسر العمليات التي تبرز فيها قدرة الطفل على محاكاة الكبار، ويلاحظ أن الطفل يستمر في تكرار الكلمات والعبارات في مراحل نموه المختلفة، وإن كان ينجح إلى الإقلال منه كلما كبر، ونمت قدرته الفعلية، واتسعت أمامه آفاق الابتكار، وازداد محصوله اللغوي من الكلمات والأدوات التي تعينه على ربط الجمل والعبارات"10

والتكرار يفيد الطفل في اكتساب المهارات اللغوية فتراه ينقل كل ما سمعه على لسان الكبار فلذا يجب توخي الحذر فيما نقول أمام أبنائنا، يقول ابن خلدون في مقدمته "يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم، هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل وتعلمها العجم والأطفال"11.

3- معجم الأطفال:

للطفل قاموس لغوي خاص يكتسبه في علاقته مع أسرته وعالمه الخارجي، له مفاهيم وتعريف خاصة بعالم الطفولة، فعلى المهتمين بهذه الشريحة السعي في تأليف

معجم لغوي خاص بالطفل يتفق مع مستويات إدراكه، أضف إلى ذلك تحسيس الطفل وتشجيعه على القراءة التي تعد عاملا مهما في إثراء رصيده اللغوي، وذلك قبل أن يصل إلى المدرسة، فميوله إلى القراءة تكون قبل ذلك.

وهذا ما يؤكده الخبراء في مجال القراءة، أن الجهود الأولى التي يبذلها الطفل لتعلم القراءة لا تتم عند دخول الطفل المدرسة في الصفوف الأولى من بداية الدراسة الابتدائية، عندما يصل الطفل إلى السادسة من عمره فحسب، بل غالبية الأطفال خبروا المادة القرائية في مرحلة مبكرة من طفولتهم الأولى قبل المدرسة، عن طريق السور القرآنية والكتب والمجلات التي أصبحت جزءا من ثقافة الإنسان، ودلت الدراسات أن هناك دافعا طبيعيا يدفع الأطفال إلى الاهتمام بالكتب وينشأ لديهم في سن مبكرة، ويستمر هذا الدافع معهم حتى يبلغ قمته عندما يتعرف الأطفال على معاني الرموز المكتوبة ويتم ذلك عند وصولهم السادسة من عمرهم تقريبا¹²

بناء على ذلك نجد أن كلمات قاموس الأطفال يشوبها الغموض ويعوزها التحديد، فالقراءة تساهم في إزالة الغموض، لذا يجب تحييب هذه العادة بإقامة المهرجانات والاحتفالات التي تصمم خصيصا لأجل ربط الطفل بالكتابات، "وتوسيع آفاق الذين يعملون مع الأطفال حول أدب الأطفال والقراء الصغار، والمسابقات وغير ذلك من الأنشطة والبرامج التي تهدف أساسا إلى تنمية القدرة على القراءة"¹³

وعليه، توطيد العلاقة بين الطفل والكتاب تنعكس إيجابا على قاموسه اللغوي لكن لا يجب أن نغض النظر عن قاموس اللغوي الشعبي الذي يتلقنه الطفل في أسرته ومحيطه وهي مفردات تختلف من ناحية إلى ناحية، فغالبا ما يتعلم الطفل كلمات من حوار الكبار، فتراه فضوليا يطرح الأسئلة إذا لم يفهم معنى الكلمة فلا يجب على الكبار تفادي أو تجنّب أسئلته والإجابة عليها ومنحهم الاهتمام اللازم، وطفل اليوم نادرا ما يتجاوب مع حكايات الجدات التي تحوي كلمات زالت وحلت مكانها جمل وتراكيب جديدة كون اللغة حية، تتغير من حقبة إلى حقبة وتتغذى من لغات جديدة،

وهذا ما نراه في عصرنا الحالي أين دخلت مفردات غربية صارت متداولة عند شريحة الأطفال.

المراجع

- ¹ - هادي نعمان، أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، بالاشتراك مع دار الشؤون الثقافية العامة لبغداد، ص13.
- ² - أبو الفتح أبو معال، أدب الأطفال وأساليهم وتعليمهم وتنقيفهم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2005، ص24.
- ³ - أبو الفتح أبو معال، أدب الأطفال وأساليهم وتعليمهم وتنقيفهم، المرجع السابق، ص24.
- ⁴ - جون يياجي، سيكولوجيا الذكاء، تر، يولند عيمانويل، عيودات للنشر والطباعة بيروت، لبنان، ص13.
- ⁵ - عاطف وصفي، الثقافة والشخصية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص80.
- ⁶ - ينظر، سعد أبو رضا، النص الأدبي للأطفال، "أهدافه، سماته ومصادره، رؤية إسلامية"، ص14.
- ⁷ - هادي نعمان الهيبي، أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه، المرجع السابق، ص26.
- ⁸ - عبد الفتاح أبو معال، أدب الأطفال وأساليهم وتعليمهم وتنقيفهم، ص26.
- ⁹ - محمد السيد حلاوة، الأدب القصصي للطفل (منظور اجتماعي ونفسي)، كلية رياض الأطفال، جامعة الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 2003.
- ¹⁰ - هادي نعمان الهيبي، أدب الأطفال، فلسفته، فنونه، وسائطه، المرجع السابق ص28.
- ¹¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص107.
- ¹² - ينظر، ماريون مونور، تنمية وعي القراءة، تر، ترجمة سامي ناشد، دار المعرفة، القاهرة، 1975، ص24.
- ¹³ - Ralphe. Staiger, roads to reading, Paris, UNESCO, 1979, page 70.

